لغة الحضارة

نعني بلغة الحضارة مجموع الالفاظ والعبارات والمصطلحات التي طرأت على لغة البداوة بعد الاسلام بين معرَّب ودخيل ومولَّد ومستحدث كالتي عُني دوزي بجمعها في كتابه الذي دعاه «تكملة المعجمات العربية» وقد دلنا طول البحث والتنقيب في كتب الادب والتاريخ على ان لها هنالك اشباهاً جمّة ونظائر فانه استدركها يحدها اليوم كل من شاء ان يتتبعها في مصنفات السلف ولا سيما ما لا يزال مخطوطاً منها حتى سقوط دولة المماليك ومع اننا لسنا من المتخصصين لمثل هذه الدروس رأينا من باب المشاركة في الخدمة ان نتقرّب الى القرّاء — وما اكثر عشاق اللغة بين الكتّاب عندنا — ونذكر لهم في كل مرّة ما يمرّ بنا عفوًا اثناء مطالعاتنا من امثال هذه الالفاظ الطارئة نوردها على هيئتنا رجاء الاصابة في ما نختاره منها مع الاقتصار على ما نرى فائدة وإمتاعاً في الاشارة اليها لصلاحية قسم منها للاستعمال بالمعنى الذي دلّت عليه قبلًا او لامكان سدّ عوز ما من حاجات الاقلام في هذا العصر ومحترزين كل دراية منها بشهادات الكتّاب والشعراء والمؤرخين وغنيّ عن البيان ما في مثل هذه التنبيهات والاستدراكات من المادة والمؤونة لتذييل دواوين اللغة وتأريخ الدخيل والمولَّد من اوضاعها تمهيدًا لجمع معجم شامل لكل الكلمات المستحدثة في حضارة الاسلام.

مربعة

جهلها ياقوت الرومي في كلامه على مربّعة الخرسي وهي محلة قديمة في شرقي بغداد فقال: «اما مربعة فكأنه يراد بها الموضع المربَّع»[1] وفاته ما كان الجاحظ قبله ذكر في تفسيرها حيث قال: اهل البصرة اذا التقت اربع طرق يسمونها مربعة ويسميها اهل الكوفة «شهارسوك» بالفارسية[2] اي الاربعة الطرق وربما كتبت بالشين بارزها والجيم المصرية بآخرها «شهار سوج» قال ابو زيد الخطيب: «سمعت ابي يقول: شهارسوج الهيثم هو الهيثم بن معاوية القائد»[3] وفي كتاب الاغاني: ان النبيه التميمي كان ينزل شهار سوج الهيثم في درب الريحان»[4]

١) معجم البلدان ٤: ٤٨٥
٢) البيان والتبيين المطبعة العلمية ص ١٠
٣) تاريخ بغداد للخطيب ١: ٨٥
٤) الاغاني ٦: ١١

ويقال اليوم لمثل هذه المربعة « المصلّبة » لوجود اربع طرق فيها متحاذية متفرعة على شكل صليب ومنها كنيسة المصلبة الواردة في عهد الكنائس بعد فتح دمشق وقد فسرها بمثل هذا اليعقوبي في وصفه مدينة سرّ من رأى فقال : « سوق الرقيق في مربعة فيها طرق متشعبة »[1]

وكانت المربعات كثيرة في مدينة كبيرة مثل بغداد ذكرنا منها مربعة الخرسي حدّث علي بن موسى الكاتب قال : « اتفقت انا وابو العيناء الضرير بربعة الخرسي فسلمت عليه »[2] ومنها مربعة شبيب ومربعة ابي قرّة[3] ومربعة ابي العباس بين الحربية وباب البصرة متصلة بشارع باب الشام منسوبة الى ابي العباس الفضل بن سليمان الطوسي احد النقباء ومربعة الفرس جمع فارسي متصلة بربعة ابي العباس وهم قوم اقطعهم المنصور هذا الموضع لما اختطّ بغداد[4] ومربعة القطانين وهي محلة الملاحين[5] وغير ذلك وكان في البصرة مربعة الاحنف[6] وفي نيسابور سوقان احداهما تعرف بالمربعة الكبيرة والاخرى بالمربعة الصغيرة[7]

ومن المربّعات بدمشق مربعة القزّ او القزازين ومربعة القطن[8] ومربعة باب البريد ذكرها المحبي في ترجمته لمراد باشا الوزير المتوفى سنة ١٠٣٠/١٦١١ فقال : « بنى على مربعة باب البريد قبة عظيمة عالية »[9] قلنا ومن اشد الحسرات ان هذه القبة هدمت ولم يبقَ لها اليوم اثر ادركناها وقد خُطّ في باطنها البيتان :

عرّج وكابك عن دمشق فانما بلد تذل لها الاسود وتخضع
ما بين جابيها وباب بريدها شمس تغيب والف بدر يطلع

---

١) كتاب البلدان ليدن ٢٦٠
٢) تاريخ بغداد ٢ : ٢١٧
٣) تاريخ بغداد ١ : ٨٤
٤) معجم البلدان ٤ : ٤٨٥
٥) الكامل لابن الاثير ١٠ : ١١٧
٦) نشوار المحاضرة ١ : ١١٥
٧) مسالك الممالك للاصطخري ٢٥٥
٨) تنبيه الطالب للملوي ٥٦١٢ باريس ٢٦٠ – ٢٦١
٩) خلاصة الاثر ٤ : ٤٥٦

دمنة ودمن

كنا في كتابنا « خبايا الزوايا من تاريخ صيدنايا » قد استعملنا لفظة دمنة لتعيين بقايا الاديار وما شخص من اطلالها فكتب لنا احد علماء اللغة ينكر علينا هذا الاستعمال وقال لنا بلفظه :

« دمنة بمعنى الاثر لا تستعمل بهذا المعنى الا اذا كان هناك اثر اوساخ الحيوانات ورماد الاتافي وابوال النعم وهي تستعمل هنا بهذا المعنى وليس بمعنى اثر البناء من طلل ونحوه »

ومن الغريب ان يقدم عالم باللغة منقطع لدرسها على تخطئة لفظ قبل ان يتحقق ما عسى ان يكون قد طرأ عليه من التوسع والتطور في عهد الحضارة فالدمنة عنده لم تبرح منذ اربعة عشر قرناً «البقعة التي سوّدها اهلها وبالت فيها وبعرت مواشيهم »[1] ولو اجال نظر المنقب في كتب الادب والتاريخ لوجد ان الدمنة في عرف الشعراء والادباء الحضريين قد خلت من هذه «الاوساخ والرماد والابوال » وتحولت بقعة صالحة انيقة تتمثل فيها الرسوم والاطلال ولا تخلو من المنازه والرياض ألا يذكر ابيات علي بن محمد بن جعفر العلوي المشهورة في ديارات الاساقف ظاهر الكوفة :

كم وقفة لك بالغريّ نقي لا توازى بالمواقف
بين الغدير الى الـ ـدير الى ديارات الاساقف
فمدارج الرهبان في اطلال خائفة وخائف
دمن كأن رياضها كسيت باعلام المطارف[2]

فان الدمن فيها قد اصبحت رياضاً زاهية كاعلام المطارف يطيب فيها اللهو والهواء كما قال في وصف امثالها احمد بن عمّار الحسيني الكوفي من ابيات مدح بها الوزير جلال الدين بن صدقة :

دمن دام لي بها اللهو وصفا لي الهوى والهواء[3]

---

١) اساس البلاغة طبعة الدار ١ : ٢٨٤

٢) مسالك الابصار ٢٨٥ – ٢٨٦

٣) الدر الملتقط من كل بحر وسقط خاصه محمد بن علي بن محمود الكاتب الدمشقي المكتبة الخالدية في القدس ص ٢٨

ومثله قول عرقلة الدمشقي من قصيدة ذكر فيها باب الفراديس وباب البريد وبعض قرى دمشق وفضلها على مغاني بغداد :

دمن هنّ لي احبّ من الكر خ واشهى من نطف خمر المطيّ(١)

وبهذا المعنى لمحاسن الشوّا الحلبي من قصيدة وصف بها ايضاً بعض متنزهات دمشق :

بجيرا وتلنيانا ودير البالسيّ اضحكت في اللهو سرّا
دمن لو قستَ حسن دماها بسواها لجئتَ شيئاً نكرا(٢)

فان الدمن في كل هذه الابيات يُراد بها مجرّد البقايا والآثار والبقاع التي اكتست بالاعشاب والازهار ولكن معنى الخراب والعفاء لم يفارق قط اصل الكلمة ولذلك قال شرف الدين عبد العزيز الانصاري الأوسي الدمشقي مؤرّخاً :

ربع اصطباري دمنة وسيوف عذّالي كليلة(٣)

ومن شواهد النثر في النص على معنى الخراب والهدم قول قطب الدين اليونيني في اخبار سنة ١٢٦٥/٦٦٣ :

« يوم السبت رابع ربيع الآخر توجه الملك الظاهر في عساكره قاصداً قيسارية . . . فاخرب المدينة والقلعة وتركها دمنة »(٤)

ونظيره قول ابن حوقل : « قنسرين اكتسحتها الروم فكأنها لم تكن الا بقايا دمَن فديتها من دمن ».(٥)

ولا نعلم ان المؤرخين والبلدانيين استعملوا كلمة اخرى غير الدمنة لتعيين بقايا الابنية وآثارها الماثلة وقد وردت غير مرة في كتاب نخبة الدهر لشيخ الربوة منها في الكلام على تدمر :

« من الابنية العجيبة القديمة ايضاً مدينة تدمر بسُدّها وجدرانها وآثارها ودمنها ».

---

١) عيون التواريخ للكتبي ١٥٨٧ باريس ٢٦
٢) عيون التواريخ ٧٦
٣) ذيل مرآة الزمان لليونيني اكسفرد Poc. or 132 f° 102 b
٤) » » » » » Poc. or 132 f° 118 b
٥) المسالك والممالك طبعة ليدن ١١٨

وفي وصف ملعب أنجبنا في الصعيد :

« مثل هذا الملعب ايضاً بدمنة مدينتي المان وجرش بالشام بالبلقاء . . . لا يعلم في الشام من الآثار مثل هاتين المدينتين الا بمدينة بعلبك وبباب البريد من دمشق المحروسة »[1]

وقد يراد بالدمنة اصل البناء وعُقر الدار والقرية ومنه قول شهاب الدين العمري في تعريف دير صيدنايا «هو في دمنة القرية »[2] وعلى هذا اصطلاح اهل دمشق في قولهم «اشتريت دملة البيت بكذا » باللام بدلاً من التون اي اصل بقعة البيت الخربة وفي هذا المعنى يترجح قول ابن الازرق الاندلسي:

امرّح الطرف وما لي دمنة في الدمن[3]

الباقة والطاقة

في كتب اللغة ان الباقة هي الحزمة من البقل ومثل هذا التعريف والاقتصار يوهم ان استعمالها في الريحان والزهر غير صحيح وهو القول الذي جنحت اليه مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (سنة ١٩٢٤ ص ٤٧٣) ورجحت ان يقال باقة في البقل وطاقة في الزهر على ان من تتبع لفظة الباقة في اقوال الكتاب والشعراء الاقدمين يتحقق ان استعمالها ايضاً في الريحان وغيره كان شائعاً مستفيضاً لم يسبق لاحد من النقاد انكاره والاستدراك عليه وهذا بعض من عدّ من الشواهد على صحته وسداد وضعه .

اما في النثر فاول ما نرويه منها قول ابي الفرج الاصبهاني « كانت في يد المعتصم باقة نرجس فقال لابراهيم بن المهدي : يا عم قل فيها ابياتاً وغنني فيها»[4] ومثله للمسعودي « كان المعتضد قد بعث الى وصيف الخادم بعد ان قبض عليه... وأُوثق بالحديد : هل لك من شهوة قال: نعم باقة ريحان اشتمها »[5] وللشابشتي في وصف إنذار المعتز « كان في صحن الدار . . . خمسة آلاف باقة نرجس

١) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر طبعة طرسبرج ٣٩ و٣٤ — ٣٥
٢) مسالك الابصار ٣٥٦
٣) نفح الطيب للمقري ٣ : ١٩٤ .
٤) الاغاني ٩ : ٥٩
٥) مروج الذهب هامش الكامل ١٠ : ١٣

وعشرة آلاف باقة بنفسج »[1] ووردت للثعالبي مرتين في يتيمة الدهر (ص ٦٣ و ١٥٣ طبعة دمشق) ومرة في كتاب « من غاب عنه المطرب » واعادها في كتاب « النهاية » فقال طلب رجل غريب ببغداد امرأة حسناء يتزوجها فقالت له دلالة : عندي امرأة كأنها باقة نرجس »[2] وفي « قطب السرور » لابي اسحق ابرهيم المعروف بالرقيق النديم « لما وضع النرجس بين يديه ... تناول باقة ودعا برطل ليشربه »[3]

واما في الشعر فالامثال كثيرة نذكر منها شعراء فارس والعراق ومصر والشام قول ابي العباس الضبي في الثريا :

جلت الثريا اذ بدت طالعة في المغرب
سنبلة من لؤلؤ او باقة من نرجس[4]

وقول الناشئ في الثريا ايضاً :

وليل توارى النجم من طول مكثه كما ازورّ محبوب لخوف رقيبه
كأن الثريا فيه باقة نرجس يجيء بها ذو صبوة لحبيبه[5]

ولموفق الدين الفيلاني المصري المتوفى سنة ٦٣٢/١٢٣٦ من الشعراء العميان :

حييت من اهوى بباقة نرجس فثنت عاطفها على لحظاته
وسقيته يد المحبة خمرة فبدت مصحفة على وجناته[6]

ولابي الفتح مظفر الاعمى من شعر في له فانوس :

فطوراً تحيه بباقة نرجس وطوراً يحييها بكأس تلهب[7]

وللقيراطي في مليح بيده باقة نرجس :

---

١) كتاب الديارات ٨٣٢١ برلين ٦٥ — ٦٦
٢) النهاية في التعريض والكناية ١٤
٣) قطب السرور في اوصاف الخمور خزانة بريتش مزيوم Or. 3628 f° 18 a
٤) يتيمة الدهر ٣ : ١٢٢
٥) ارشاد الاريب ٥ : ٢٤١
٦) نكت الهميان للصفدي ٢٩١
٧) انسان العيون في الخزانة التيمورية ١١٨

عاينت باقة نرجس في كف من اهواه غضة
فكأنما قضب الزمر د اثمرت ذهباً وفضة(١

ولمجد الدين الدمشقي خطيب النيرب المتوفى سنة ٦٩٤/١٢٩٤ في ضوئي :

بأبي غزال جاء يحمل مشعلاً يكسو الدجى بملاء ثوب اصفر
فكأنه غصن عليه باقة من نرجس او زهرة من نوفر(٢

ولابن حمديس الصقلي :

وباقة مستحسن نورها وقد خلت في الشم من كل طيب
كسحر راقتك انواعه وليس في حلتهم من اديب

وله ايضاً :

كان الثريا فيه باقة نرجس من الشرق يهديها الى مغرب يُهدى(٣

ونختم بقول الثعالبي : « من احسن ما سمعت في باقة ريحان قول بعض الكتاب :

وباقة ريحان كعقد زبرجد حوت منظراً للناظرين انيقا
اذا شمها المشوق خلت اخضرارها ووجنته فيروزجا وعقيقا(٤

ونقل النويري لشاعر اندلسي يصف الديك : وقام له ذنب معجب كباقة زهر بدت من بنان (نهاية الارب ١٠ : ٣٢) .

ولوفرة مثل هذه الشواهد لا يبعد ان يكون استعمال لفظة « الباقة » في الازهار والبقول اوفر من استعمال « الطاقة » فيها ولكنهم لم يقتصروا فيها على هذا الوجه بل توسعوا في اطلاقها على كل حزمة وضمّ كقول ابن ابي الصقر الواسطي في ضمّ الكبريت كتبه الى قادم من بغداد :

من هدايا بغداد في الف حِلّ انت الا من باقتي كبريت(٥

---

١) مراتع الغزلان للنواجي خزانة الفاتيكان رقم ٧٨٣ ص ٧٣
٢) المنهل الصافي لابن تغري بردي الخزانة التيمورية ٤ : ١٨ — ١٩
٣) ديوان ابن حمديس رومة ٢٣ و١٢٥
٤) من غاب عنه المطرب ٣٤٠١ باريس ١١٨
٥) خريدة القصر للعماد الكاتب ٣٣٢٩ باريس ١٢٦

وقول عبد الرزاق الفوطي في حزمة الحطب والشوك في كلامه على زيادة مياه دجله سنة ١٢٨١/٦٤٦ :

« خرج الوزير مؤيد الدين بن العلقمي الى هناك ونزل عن فرسه وحمل باقة حطب فوافقه كافة الناس[1] وقال ايضاً في اخبار سنة ١٢٥٦/٦٥٤ وقد زادت دجلة زيادة عظيمة « فركب الوزير وكافة الولاة معه واخذ الوزير في يده باقة شوك ففعل سائر العالم مثل ذلك[2] » ولابن المعتز في شمة تفاح :

مخلوقة نعم كلها بدع كان وحشتها باقات تفاح[3]

ومما يدل على ترادف لفظتي الباقة والطاقة وتعاقبهما في التعبير على كل حزمة قول ابي نواس في طاقة الشوك يهجو جارية اليزيز واسمها نبات :

وجه نبات كأنه قمر يلوح في ليلة الثلاثين
واحسن من حسنه وبهجته كطاقة الشوك في ازياحين[4]

١و٢) الحوادث الجامعة ٥٤ و٣٠٩ و٣٥٨
٣) ديوانه طبعة بيروت ٢١٧
٤) ديوانه ٤٨٢٩ باريس ٢٧٩